لن تمر المدعشة

أياد المقداد *

لا يبدو التحرّر من المدعشة بهذه البساطة. المدعشة ليست حالة مخابراتية أو فكراً دخيلاً كما هي أمنية الكثيرين، بل هي جزء لا يتجزأ من الوعي الجمعي لشعوب تتشارك المفاهيم نفسها مع اختلاف في التفاصيل. تكفي معاينة صفحات التواصل الاجتماعي على خلفية حادثة حانة اسطنبول، ليتكشف الكم الهائل من الدعشنة في صفوف رواد الصفحات على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية والثقافية لو صحّ التعبير. المتابع للجدل يلحظ أنّ محور النقاشات تركّز حول صلاحية استخدام مفردة شهيد أو شهيدة في ما يخصّ ضحايا العملية الإرهابية في حانة اسطنبول، وهي نقاشات بدأت فيما كانت جثامين الضحايا لا تزال في مكان الجريمة وتوالت بعد نقل الجثامين وستستمر بعد دفنها. المشكلة لم تقتصر على المفردة التي يرى فيها غاضبون أنّها مصطلح شرعي له شروطه وشرائطه وهي من المراتب السامية التي لا يمكن أن تعطى إلا لمن يستحقها فعلاً، بل وصل الأمر إلى التعرّض للضحايا أنفسهم باعتبارهم قضوا وهم على مائدة الخمر وفي دار لهو ومجون. حتى إنّ بعض رواد المواقع رأى أنّهم نالوا ما يستحقون كونهم من المفسدين في الأرض. إحدى المغردات كتبت: "ماذا يفترض أن نطلق عليهم؟ شهداء القنينة مثلاً؟" وكتب آخر: "هل أصبحت كلمة شهيد رخيصة إلى هذا الحد حتى نطلقها على رواد البارات؟". بينما تصدى آخر بانفعالية أيضاً ليعتبر الضحايا "شهداء ثقافة الفرح والحياة بين جموع لا همّ لها إلا نشيد الموت والقتل". وأضاف أحدهم "إنّ الحانة ليست إلا شيئاً لا يذكر، إذا ما قورنت بأنهار الخمر وبسيقان الحوريات وأسنان الغلمان التي يلهث خلفها المتدينون ويموتون في سبيلها". ولم يقتصر الجدل على التراشق اللفظي، بل وصل إلى حدّ نشر صور لضحايا الحانة كجثث نصف عارية في استهزاء فاضح بحرمة الموت وبشماتة معلنة. على الجبهة المقابلة، لم يتورّع الآخرون عن نشر ما استطاعوا نبشه من التراث الإسلامي المكتوب من أحاديث وسيرة وفتاوى مستهجنة ومستغربة طاولت تفخيذ الرضيعة، وصولاً إلى طريقة استعراض السبايا وتفحص أجسادهن من قبل صحابة وتابعين.

هل يستحق الأمر فعلاً كلّ هذا الكم من الانفعال والأحقاد المتبادلة؟

في مجتمع مدني متعدد الثقافات والانتماءات، لا يفترض أن تقوم أي شريحة اجتماعية بمحاكمة شريحة أخرى مختلفة وفقاً لمفاهيمها هي أو رؤيتها للعالم والكون. الدعشنة لا تنتمي بالضرورة إلى دين أو مذهب. الدعشنة طريقة تواصل مع الآخر، رؤية فوقية للمجتمع، توهم التواصل مع عالم غير مرئي أوكل إليها الإشراف على العالم وإخضاعه. من الواضح تماماً أنّ هناك طبقة تمارس هذه الممارسة وتتبناها في استعلاء فاضح وترفض أي مس بمفاهيمها تحت مسمى قداسة هذه المفاهيم. ولكي لا يفهم أحد مجرى الحديث في غير سياقه،

> في محضر الضحايا الشهداء لا يجدي إلا الصمت أمام رهبة الموت

فإنّ الجمهور الأغلب الذي وقف متصدّياً للمتدعشنين هو جمهور المقاومة بالذات. إنّ نظرة إحصائية على أعداد المغردين لا بدّ من أن تلحظ بوضوح حجم المشاركة الشيعية الكثيفة على صفحات التواصل وهي تصحح مسار البوصلة في اتجاهه الصحيح، رغم بعض أصوات النشاز التي أساءت وتسيء إلى حجم التضحيات التي قدّمها هذا الجمهور على مذبح الوطن وفي سبيل كل مكوّناته. فهل يستطيع المتدعشنون أن يفسروا لنا استبسال المقاومين في حماية كنائس حلب وصلبانها وأيقوناتها وأقبيتها، بما فيها من مخزون نبيذ؟ ألم يلحظ "حراس السماء" أن "بوست" نشره رجل ديني شيعي على صفحته تعرّض فيه لبابا نويل لم يصمد أكثر من ساعات، حتى عاد وسحبه وتبرأ منه ومن الصفحة ذاتها تحت الكم الهائل من انتقاد جمهوره هو بالذات؟ ببساطة شديدة وصراحة أشد، إنّ انتماء الجمهور لفعل المقاومة ولمعسكرها لا يعني أنّه يمكن جرّ الجمهور وبكل شرائحه إلى الأدلجة العقائدية، فهذا شيء آخر مختلف تماماً. وعلى من يحاول ممارسة السلطوية النظرية، وهي لم تخرج عن كونها نظرية، على طريقة معيشة الناس ومسلكهم ومشربهم، أن يعلم أنّه لن يستطيع فرض معتقده على الآخر وأنّ عليه أن يحترم الرؤية المغايرة ويتلقى دروساً في النسبية، فأبواب السماء لا يمكن لأحد أن يحتكرها ولا أن ينفي الآخر ويزجّه في خانات التكفير تمهيداً لسحقه وقتله. تستطيع تماماً أن تنبش في كتب تراثك فتوى قتل شارب الخمر وقتل المرتد وقتل الغراب وقتل الكلب الأسود وقتل ما يحلو لك، لكنك لن تستطيع أن تحلم بممارستها فعلياً على الأرض، فذاك زمن في طور الانقراض. لقد عرّت الداعشية تفاصيل كثيرة كانت مخبوءة في مكنونات "حراس السماء" وكشفت صفحات شديدة السواد من مسيرة تاريخية بائسة أودت بنا إلى المستنقع البائس الذي يستطيع أن ينتج دواعش بالملايين ليموتوا بعشرات الآلاف في سبيل شهوات مكبوتة طموحها الأقصى أكبر ماخور يمكن أن يتصوره عقل من أنهار خمر وأجساد عراة. ليس في الأمر أي عفّة، فالباحث في تاريخ الغزوات والفتوحات المقدسة لا بدّ من أن يصدمه حجم البذاءة التي يحفل بها هذا التاريخ، شأنه شأن أي تاريخ بدائي آخر ولا استثناءات.

في محضر الضحايا الشهداء، سواء كانوا مشركين أو موحدين أو عبّاد بقر، وسواء كانوا في محراب عبادة أو على مائدة خمر، لا يجدي إلا الصمت أمام رهبة الموت والتسليم لقضاء رب هو الحاكم وحده ولا يحتاج إلى شريك. نحن أبناء الوطن الواحد والحلم الواحد ليس لنا إلا عدو واحد وهو الجهل.

* كاتب لبناني

(أ ف ب)

وحسماً من حيث إمكان أو مقدار التأثير في مسار الأحداث في سوريا والقدرة على تمرير وتظهير هذه الإرادة في التأثير وممارسة النفوذ السياسي والمعنوي، أو حتى استخدام القوة المادية أو العسكرية، وذلك بعد معركة حلب الأخيرة وعلى إثر تصفية السفير الروسي لدى أنقرة. هذا يعني تصاعد الدور الروسي في الأزمة السورية في المستقبل، بما في ذلك الحضور السياسي والحراك الدبلوماسي في المحافل أو على المنابر الدولية، كما في كواليس السياسة الدولية، وكذلك تصعيد الدور العسكري، أو بالأحرى التدخل العسكري المباشر في الميدان السوري. سيزداد حجم أو مقدار التأثير الروسي في مسار الحل السوري وفي مصير المسألة السورية، وربما ستكون روسيا أكثر قدرة على المبادرة والحركة، وفي وضع أو موقع أفضل على طاولة المفاوضات السياسية والدولية والدبلوماسية بشأن سوريا وحولها، إذ لا أحد يمكنه أن ينتظر أو يتصور أو يتخيل إمكان، أو حتى احتمال، الانكفاء أو التراجع الروسي في الموضوع السوري، من هذه اللحظة السياسية في تاريخ المسألة السورية المعاصر، وبعد كل هذه المزايدات والمناقصات والاستثمارات في المزاد السوري من قبل الجميع. من هنا، ربما تحظى روسيا بفرصة المساهمة والمشاركة أو «الضلوع» في إيجاد خارطة الحل السياسي أو التسوية السياسية للقضية السورية وصياغتها، وذلك، بطبيعة الحال، مع القوى أو الأطراف الدولية الأخرى والإقليمية، المعنية بالشأن السوري، ووضعها على سكة التنفيذ الصحيحة، أو الدفع باتجاه هذا الخيار السياسي، ولا شيء سواه، وربما فرضه، على أن يبدأ هذا المسار السياسي، أو هذه العملية السياسية، بوقف الأعمال الحربية والعمليات العسكرية، وإنهاء حالة الحرب في سوريا والاستباحة والاستنزاف للدولة السورية.

في المحصلة، يمكن أن نخلص، من هذه المقاربة السياسية، إلى أن الدور الروسي في القضية السورية المعاصرة، أو بالأحرى التدخل الروسي في الأزمة أو الحرب السورية، بكل صراحة، لم يكن أبداً مغامرة أو مقامرة أو أي شيء آخر من هذا القبيل. من وجهة النظر الروسية، سواء القيادة أو النخب، أو بالنسبة إلى الروس، ومن زاوية المصالح الروسية، كما من زاوية التحليل السياسي العلمي أو الصحافي، كان الحضور قويّاً ووازناً ومؤثراً، وكان الدور محورياً ومركزيّاً، وكان الأداء محترفاً، ويختلف، في بعض الأحيان، وبكل وضوح، عنه في قضايا أو ملفات أخرى.

* أستاذ العلوم السياسية في الجامعة اللبنانية

كانت تُخصّص لوالي دمشق ليصرفها على زاد قافلة الحج في طريق عودتها من مكة، وكانت قيمة الرشوة هذه كبيرة جداً في حينه، الأمر الذي جعل الباب العالي يعتقد أن سعوداً سوف يقبل بها مقابل سماحه بدخول قافلة الحج وحمايتها في طريق عودتها إلى الشام. لكن الأمير الوهابي رفض العرض وأصرّ على موقفه، ما دفع اسطنبول إلى التشاور مع واليها في دمشق وإعطائه كامل الصلاحيات في سبيل الوصول الى طريقة تحل المشكلة. لم يجد يوسف باشا أي حلّ للمعضلة سوى أن يتحول أهل الشام كلهم إلى وهابيين!

اعتقد الوالي العثماني ـ الكردي الأصل ـ أنّه إذا تظاهر بأنه يميل إلى العقيدة الوهابية، فإن الأمير السعودي سوف يلين من موقفه ويسمح للقافلة بدخول مكة والمدينة. أصدر يوسف باشا قبيل انطلاق موكب الحج في كانون الثاني عام 1808 أوامر عدة وفرمانات كانت جديدة على المجتمع ولم يألفها الناس من قبل. قرر الوالي أن يتشدد في أمور الاختلاط بين الرجال والنساء في الأسواق والمجالس والخانات، وأمر بإقفال الأسواق والبازارات في أوقات الصلاة، ومنع شرب النبيذ وغيره من المسكرات. فرض على المسيحيين واليهود علامات فارقة تميّزهم عن سائر الناس، وأجبرهم على ارتداء الألبسة الداكنة والأحذية الخاصة، وأُمروا أن يقفوا أمام الأتراك بوضع الاحترام الزائد.

أصدر الوالي أمراً يقضي بحرمان المسيحيين وغيرهم من غير المسلمين من تعليم أولادهم أصول الدين، وإجبارهم كما المسلمين على ترك لحاهم، وكان يحكم على الحلاق بقطع يده إذا ثبت أنه حلق ذقن أيّ كان. كانت هذه الأنظمة والقوانين الجديدة تطبّق بشدة وغلظة، وكان المخالفون يخضعون لأقسى العقوبات، وقد أوقف مسيحي وشُنق عند نشر هذه الأنظمة لأنه كان يحتذي حذاءً أصفر اللون، فيما نجا أربعة من العقوبة بإشهارهم إسلامهم. بهذه الإجراءات التي اعتقد يوسف باشا أنها ستجعل الوهابيين يقتنعون بأنه بات يعتنق مبادئهم، ساد اعتقاد بين الدمشقيين بأن الوالي فعلاً تحوّل إلى الوهابية، وسرت أحاديث عن إعلانه أنه سيشهر عقيدته المتوهّبنَة هذه في أقرب فرصة. ظهر في بادئ الأمر أن الوهابيين صدّقوا توجّه الوالي، إذ أرسلوا سرية انتظرت على بعد ثلاثين ميلاً جنوب دمشق لاستقبال القافلة ومرافقتها في الصحراء. تركت القافلة دمشق في كانون الأول عام 1808، وكانت في حالة يرثى لها، من دون رايات ولا أسلحة ولا موسيقى على عكس ما درجت عليه عادة قافلة الحج الشامي، وكان تعداد الحجاج لا يتعدى 350 شخصاً، بعدما كانت في أعوام سابقة تعدّ بعشرات الآلاف. ما أن وصل الحجاج الى «بركة ست زبيدة» (شمال السعودية حالياً)، حتى أُمروا بالرجوع بناءً على تعليمات سالم بن سالم الذي كان سعود قد عينه لقيادة القافلة، وانقضّ الوهابيون على كنز صرّة القافلة وصادروه، وكان مبلغاً مهماً. هكذا انتهت آخر محاولات العثمانيين للذهاب إلى الحج، إلى حين انكسار الدولة السعودية الأولى في الحجاز على يد جيوش محمد علي باشا ابتداء من عام 1811.

> يدرك أردوغان أن خيار التصادم المباشر مع السعودية لن يؤتي أكله

في السادس من كانون الثاني عام 2016 كان رئيس السلطة الدينية في تركيا الشيخ محمد غورماز يزور الرياض على رأس وفد تركي كبير. التقى الضيف التركي بمفتي السعودية عبد العزيز آل الشيخ، وخلال اللقاء اقترح غورماز على نظيره السعودي أن تساهم الحكومة السعودية في بناء مدارس وجامعات للاجئين السوريين في المحافظات التركية الجنوبية التي يوجدون فيها. لطمأنة السعوديين وترغيبهم، زاد غورماز في عرضه عليهم بأن تقوم الرياض بالإشراف على وضع المناهج التعليمية في هذه المدارس والجامعات، بخاصة أن السعودية «لديها خبرة واسعة ورائدة في مجال افتتاح المدارس حول العالم، ووضع مناهج تربوية تراعي التعاليم الإسلامية»، وفق تعبير الضيف التركي آنذاك. بين عامي 1808 و2016، يكاد التاريخ يعيد نفسه، فالعثمانيون بانتهازيتهم قد عادوا، والوهابيون المتعطشون للتمدد وتلويث العقول ما زالوا موجودين، وبين الجهتين، شعب يكتوي بنار المصالح الأيديولوجية مرتين.

* صحافي لبناني